الجزء الثالث

شعـــب

الرسالة الثانية عشرة

سعيد من قال: أنا تركي

عزيزتي السيدة ماري،

لاحظتُ أنك لا تقضين وقتًا كبيرًا في تحليل الشخصية التركية أو إصدار أحكام على سلوكياتها، بل تصفين الأحداث دون تحليل، ويعجبني أنك تفعلين ذلك لأنني أحاول القيام بالشيء ذاته في حياتي المهنية والشخصية.

إن أعظم ميراث تركته رسائلك هو رفضك التصرف بتعالٍ ونقد للأتراك؛ إذ أدركتِ أن أسوأ صور العجرفة تتمثل في أن يأتي شخص أجنبي ويشرع في تصنيف مواطني أي بلد ويقع فريسة التعميمات والقوالب الشائعة.

من جانب آخر، قضيتِ وقتًا طويلًا في محاولة تحليل شخصيتكِ ومنزلتك الاجتماعية بدلًا من تحليل الأتراك؛ أعتقد أن التعليق الوحيد الذي قرأته لك حول الشخصية التركية هو أنها لا تكذب: "من مراتب الجود أن تقول الصدق، ومن النادر جدًّا أن تسمع كذبًا من أي تركي".

وقلت كذلك للقس كونتي: ''يمكنني أن أخبرك بصدق يا سيدي أن الأتراك ليسوا جهلاء -كما نتصور- بشؤون السياسة والفلسفة حتى الشهامة''.

في الواقع نحن -الغربيين- جهلاء بشؤون السياسة، ولا سيما ما يتعلق بالأتراك؛ فبعد مرور أعوام من ترسخ صورة ''الأتراك المرعبين'' الذين يدقون أبواب فيينا والتأثير المشين الذي تركه فيلم ''ميدنايت إكسبريس''، ما زالت هناك حتى اليوم شكوك وإساءة فهم لطبيعية تركيا وشعبها.

على مدار أعوام من السفر إلى تركيا لاحظت بعض التوجهات التركية التي تختلف عن توجهات ثقافتي، وحاولت قدر استطاعتي أن أتحلى بالموضوعية مثلك أثناء مراقبتي لهذه التوجهات؛ فلا أنظر إليها عبر نظارة وردية أو نظارة سوداء، غير أنك تدركين أنني أنظر من ركن نافذة ملطخة بمعتقداتي الشخصية الكثيرة المتأثرة بأيام نشأتي وثقافتي، وكما تقولين بوضوح تام: ''إن الإدراك الإنساني قاصر قصور القدرة الإنسانية أو القوة الإنسانية''.

ذكرتُ منذ قليل أن هناك أفكارًا خاطئة كثيرة منتشرة حول الأتراك، سواء بحسن نية أو بسوء نية حتى يومنا هذا، ومن الصعب تصديق أن الأشخاص في عالمنا المفتوح الواسع ما زالوا يتشبثون بتلك الأفكار الرجعية الموروثة التي استمدت قوتها من مشاعر التحيز والخوف.

تركيا ليست في الشرق الأوسط، والأتراك يتحدثون التركية لا العربية، ولغتهم تُكتب بالأحرف اللاتينية.

صحيح أن الإسلام هو الدين الغالب على أهل البلد، لكن أصحاب كل الديانات الأخرى يمارسون أديانهم منذ أيام السلاجقة؛ ودليل ذلك انتشار الكنائس والمعابد اليهودية في أنحاء تركيا، فتتمتع تركيا بحرية العبادة، تمامًا كما كان الوضع أثناء وجودك يا سيدة ماري.

وفي عالم اليوم الذي ما زالت النساء يواجهن فيه نفس تحديات عصركِ الخاصة بقضايا المساواة والاستقلالية، تتمتع نساء تركيا بالحرية القانونية ذاتها التي يتمتع بها الرجال، كما لا يُجبرهن أحد على تغطية رؤوسهن.

في حين يتبنى البعض معتقدات زائفة حول الأتراك، فإنني أتساءل كثيرًا: كيف يرى الأتراك أنفسهم؛ فربما لا يكون من المستغرب أن تضم تركيا طوائف مختلفة من الناس، وسيكون من العسير حصر تنوع الأعراق والأديان والأصول والطبقات والمنازل الاجتماعية في هذا البلد.

يتمتع الأتراك بالتنوع الثقافي الخاص بهم مثلهم في ذلك مثل الأمريكان الذين يضربون للعالم أجمع مثالًا يبين أن تعدد الثقافات قد يفرز قوة اجتماعية هائلة إذا سُمح له أن يستمر وينمو، وهو ما حدث في تركيا؛ فليست هناك معايير عرقية تركية محددة لأن سكان تركيا متنوعون بين اللاز والأكراد والعرب ونسل القبائل التركية في آسيا الوسطى الذين بدؤوا يتوافدون على تركيا في القرن العاشر الميلادي.

تقدم كل هذه الأعراق تنوعًا مذهلًا في بنية الشعب التركي؛ فتجد أتراكًا بأنوف كبيرة راجعة إلى منطقة البحر الأسود، وأتراكًا طوال القامة بشعر أشقر، وأتراكًا آسيويين قصار القامة أقوياء البنية يتميزون بعظام وجنة مرتفعة وأعين مائلة تعود بكل وضوح إلى الفرس، وتجد أتراكًا بشرتهم بيضاء وشعرهم أشقر أو أصهب من نسل الشراكسة الذين عاشوا بين حريم السلطان، وهناك أتراك بشرتهم بلون زيت الزيتون وبنيتهم بنية البحر الأبيض المتوسط النحيلة، وأكراد بأنوف كبيرة وأعين أخاذة نابضة بالحياة، إلى جانب الفلاح الأناضولي القوي المكتنز مدبب الرأس ذي القسمات الحادة.

أما في النساء، فتجد نساء بملامح رقيقة يمكن نسبتها إلى الشرق الأقصى، ونساء بوجوه عريضة سلافية، وهناك أطفال حُمر الشعر من نسل الصليبيين بمنطقة البحر الأسود، وأطفال اللاز ذوو الأنوف المعقوفة، وأطفال العرب ذوو البشرة اللامعة بإقليم هاطاي.

وينطوي هذا التنوع على أزياء مختلفة، بدءًا من أزياء المصممين الرائجة في إسطنبول، إلى الأحزمة العريضة والسترات الطويلة وأغطية الرأس ذات النقوش المربعة في منطقة الجنوب الشرقي، إلى السراويل الواسعة التي يرتديها الرجال والنساء في وسط الأناضول، وصولًا إلى الملابس البراقة الزاهية الألوان التي ترتديها النساء الكرديات وتتميز بحبات التِرْتِر والأشرطة المثبتة على ظهورهن.

يرتدي الرجال الأتراك قبعات مسطحة أو قبعات بيضاء، والنساء أوشحة حريرية ملونة أو أوشحة قطنية بسيطة تزين حوافها أزهار كُرَيْشَة صغيرة حيكت بدقة.

لعل أغلب هذه الأزياء تشبه ما رأيته يا سيدة ماري، غير أن العولمة بدأت تمحو آثار هذا التنوع لصالح القمصان وسراويل الجينز والأحذية الرياضية التي أصبحت شائعة جدًّا بين شباب تركيا.

كنتُ منتبهة منذ لحظة وصولي إلى تركيا ألا أقع فريسة القوالب الشائعة التي كونتها من انطباعات الآخرين، وقد كنت محقة في ذلك؛ فعندما يوصف شخص بأنه عنيد في اللغة الفرنسية يُقال: ''إنه عنيد كالأتراك!'' لكنني لن أصف الأتراك بالعناد بقدر ما أصفهم بالانضباط وصعوبة المراس؛ فالأتراك حازمون ويقررون دائمًا ما فيه مصلحتك، حتى إن لم يكن ذلك ما تتوقعه؛ فلا يمكنك طلب طبق من قائمة الطعام إذا رأى النادل أنه ليس في مصلحتك، وسيقدم لك أطباقا لم تطلبها

ولا تثير اهتمامك، لأنه يرى أنها الأطباق التي يجدر بك تناولها، ولن يسمح لك صاحب المتجر مثلًا بشراء سترة برتقالية إذا ظن أن اللون لا يناسبك، مهما عرضت من نقود.

يتمتع الأتراك بنظام رادار شخصي داخلي بالغ التعقيد؛ فيدركون كل شيء يحدث حولهم، ولا شيء يفوتهم؛ لذا يحرصون على الانتباه لشؤونك، لأن عيونهم في كل مكان.

إنهم لا يغفلون عن أدنى حركة ولا يفوتهم شيء؛ فإياك أن تحاول ارتكاب شيء أمامهم، غير أنهم ليسوا جواسيس للشرطة، بل إنهم يفعلون ذلك لحرصهم الشديد أن تتلقى الرعاية الكاملة، وألا يقع الأطفال من أعلى السلالم، وأن يتم توفير مقعد لامرأة توشك أن تفقد الوعي، على سبيل المثال.

يميل الأتراك لحماية من حولهم، ولا يريدون أن يتعرض ذووهم أو من يلون أمرهم لأية مشكلة أو مأزق؛ قد يتخذ الأمر صورة رسمية تتمثل في نقاط التفتيش المرورية على طريق ملاطيا، يقوم الأتراك بذلك بحذر وسرية، فيفاجئك الأمر تمامًا عندما تكتشفه؛ فثمة تركي خلف كل شجرة وفي كل زاوية يراقب ما يحدث، مستعد للتصرف في أي لحظة إذا لزم الأمر؛ إنه موظف استقبال الفندق بمدينة وان الذي اتصل بزميله -في الفندق الذي سافرت إليه في المدينة التالية- ليطمئن على سلامة وصولي، لأنه شعر أنني لم أبد على ما يرام؛ إنه صاحب المتجر في مدينة قيصري الذي يبادرني بقوله: ''صباح الخير يا آنسة كيتي'' كلما دخلت إلى متجره، (كيف عرف اسمي؟)؛ إنه البقال في مدينة سيواس خلال أيام المحن السياسية، كان يترك بندقيته ليقدم لي عصير الكرز، ويقرب لي مقعدًا، ثم يمسك بندقيته مرة أخرى ليقف بجوار الباب؛ إنه النجار

في مدينة وان شرق تركيا الذي حيّاني بحماس قائلًا: ''مرحبًا، كنت أنتظر قدومك'' وحين سألته كيف عرف أمري، أجاب ''أعرف كل شيء عنك! بلغني أنك في المدينة وكنت أنتظرك؛ فالمدينة كلها تتحدث عنك!''.

يعشق الأتراك الزهور، وهذه العاطفة منتشرة على الصعيد الوطني؛ فتجد نقوش الزهور على كل الستائر وأغطية رأس السيدات وأباريق الشاي، ويقضي باعة الأزهار ساعات في صنع أكاليل كبيرة مزركشة لحفلات الزفاف، ويصنع الأتراك باقات مركبة من أزهار بلاستيكية تعلوها قطرات ندى صمغية اصطناعية، ويكون الإقبال على شرائها أكبر من الأزهار الطبيعية، ويضعون بتائل الأزهار فوق أطباق السلطة وينثرونها على موائد العشاء، ويستغلون الصفائح الفارغة لزيت الزيتون في زراعة الأزهار ويضعونها في كل مكان ملائم.

الأتراك مولعون بالزهور عمومًا لكن ثمة زهرة ذات أهمية خاصة في قلوبهم: إنها زهرة التُّوليب، سأتحدث بالتفصيل في رسالة أخرى عن حدائق الجنة في إزنك، لكن القصة التالية ستعكس مدى الولع التركي بالتُّوليب، والقصة تدور حول ''مسجد لالَهْ'' في قيرشهير الذي بُني عام ١٢٧٢هـ، واسم المسجد مقتبس من اسم زهرة تُوليب رائعة الجمال أهداها طالب في ''مدرسة جاجابي'' الدينية المجاورة إلى بُناة المسجد، ثم بِيعت الزهرة لتمويل عملية ترميم المبنى ليكون مسجدًا، لكن لا داعي لأن أحدثكِ يا سيدة ماري عن ولع الأتراك بالزهور، أليس كذلك؟ فالسلطان أحمد الثالث الذي تولى الحكم أثناء وجودك في تركيا ترك بصمته التاريخية بتشكيل ''عهد لاله (التُّوليب)''، وهي فترة من البهجة والتنوير ركزت على الولع بزهرة التُّوليب في الفنون والأدب والحياة الاجتماعية.

غير أن زهرة التُّوليب كانت محبوبة قبل الموجة الجنونية التي اجتاحت تركيا؛ كتب بوسبيك الذي كان سفير الإمبراطور النمساوي في بلاط السلطان سليمان الكبير عام ١٥٥٤م في رسائله: ''شاهدنا في كل مكان أزهارًا وفيرة... الأتراك مولعون جدًّا بالزهور حتى إن فرق المشاة تلقت الأوامر بعدم الوطء عليها''؛ وقد أحضر زهرة التُّوليب إلى أوروبا، وبحلول عام ١٦٣٠م اجتاح ''شغف التُّوليب'' هولندا.

يستمتع الأتراك بكل موسم من مواسم العام لأقصى حد، وترمز زهور التُّوليب للميلاد من جديد وسعادة الحياة، واليوم نرى التُّوليب في كل مكان، في أصص على طاولات الخطوط الجوية التركية ، وفي كل كتيب أدعية منشور، وفي سلاسل المفاتيح، بل قد أصبحت الرمز شبه الرسمي لدولة تركيا، حتى إن الآلاف من أكواب الشاي التي تُقدم في تركيا تتخذ شكل زهرة التُّوليب.

غير أن زهرة التوليب تواجه منافسًا قويًّا، وهو الورد؛ ففي أكثر قرى تركيا المتربة المتواضعة هناك دائمًا محاولات لإنشاء صورة من صور الحدائق العامة المزروعة بشجيرات الورد، قد تكون رقعة من الأعشاب في منتصف ميدان، وغالبًا ما تنتشر حدائق الورد المزهرة حول مساجد الأحياء ويعتني بها بستاني مقيم.

أرى أن أجمل ورد في تركيا هو الورد القرنفلي الذي ينبت على ضفاف النهر الأخضر في توقات؛ ذات مرة كنت في متجر مع صديقة أرادت شراء إبريق للشاي، وظل صاحب المتجر يعرض عليها تصميمًا تلو الآخر ولم يعجبها أيّ منها، وأخيرًا عرض عليها إبريقًا مزينًا بورود حمراء مشرقة، فصاحت مجموعة من النسوة الواقفات حولنا وهن يراقبن ما يحدث: ''نعم، إنه أجملها! لا بد أن تشتري هذا الإبريق!''

لكن صديقتي غادرت دون أن تشتري شيئًا؛ وشعرت أنني ملزمة بالبقاء لأوضح لصاحب المتجر أن إحجامها عن الشراء لا ينطوي على أية إهانة له أو انتقاص من جودة بضاعته، وإنما يرجع السبب إلى أنها -في الواقع- لا تحب الأزهار، لن أنسى تعبير الاستنكار الذي علا وجوه الجميع؛ لأن هذا السبب غير معقول في تركيا.

بالإضافة إلى حب الأتراك للزهور يحبون الطبيعة أيضًا أكثر من أي شعب آخر؛ فالطبيعة الخضراء تحمل قدسية خاصة في أعينهم، وتنعكس حيويتها وخضرتها في أطر الأبواب والنوافذ وأعالي القباب والسجاجيد وأصص الريحان.

وثمة شبكة واسعة من الغابات الوطنية التي تغطي أراضي تركيا، ومن أحبها إلى النفس المتنزه الوطني لجبال إلغاز.

لا شيء أحب إلى الأتراك من تسلق الجبال الشاهقة والتنزه فيها، وإذا تعذر ذلك فيمكن إيقاف السيارة على جانب الطريق، والجلوس تحت الأشجار، وتناول الفاكهة الطازجة أو أكواب الشاي أو الشواء على الشواية.

لقد منّ الله على تركيا ببيئة طبيعية مميزة يقدّرها الأتراك الذين يوقرون بحارهم وجبالهم وغاباتهم وبحيراتهم ويستمتعون بها، ويحبون الطيور ويحتفظون بها في أقفاص في الحدائق، كما فعل السلاطين الأتراك من قبل حينما أمروا ببناء بيوت حجرية للطيور في الجدران الخارجية للمساجد.

كذلك يحرص الأتراك على البقاء بالقرب من المزارع والأراضي، ويستمتعون بقدوم الربيع إذ تتفتح أزهار التُّوليب البرية، ويقدّرون خيرات الأرض، سواءٌ كانت محاصيل وفيرة أو عسل النحل.

من أشهر قصائد الشاعر التركي الشعبي العظيم عاشق فيسيل قصيدة بعنوان ''تراب الأرض'' يقول فيها: ''حبيبتي المخلصة هي الأرض، رغم أنني جرحتها بمعولي ومجرفتي، ابتسمت لي وأهدتني ورودًا حمراء؛ حبيبتي المخلصة هي الأرض...'' وما زالت الخيول الغالية تعدو في الأراضي الجبلية بشرق تركيا، وهي تلقب -احترامًا- باسم ''أجنحة الأتراك'' المقدسة.

يتجلى حبّ الأتراك للطبيعة في المكانة الخاصة التي يمنحونها للماء؛ فلا يضيعون أي فرصة للشرب من سُبل المياه العامة الكثيرة في المدينة، أو الشرب مباشرة من الينابيع العذبة المتدفقة بجوار الطرق؛ فمن المعروف أن إتاحة سبيل ماء من أفضل وأتقى الأعمال الدينية.

يحب الأتراك الماء كما يحب الفرنسيون النبيذ، ويمكنهم التمييز بين مياه الينابيع المختلفة بنفس الدقة التي يميز بها أحد سكان بوردو بين أنواع الخمر التي يمتلكها.

الأتراك يحترمون ينابيعهم، وعلى رأسها نبعا نكسار وأيْفاز؛ ولا تجدهم يقودون سياراتهم في الطريق بجوار نبع دون التوقف لملء الزجاجات وحافظات المياه، بل إنهم يحتفظون في صندوق السيارة بأوعية وزجاجات بلاستيكية لهذا الغرض بالتحديد.

يحب الأتراك الموسيقى وكل ما يتعلق بها، الاستماع إليها حية أو مسجلة، وتأليفها، والغناء معها، ويتمتعون بمواهب موسيقية متعددة، شأنهم في ذلك شأن الأمريكان؛ ففي تركيا تسمع الموسيقى الصاخبة المتواصلة في كل مكان: في الحافلات والمتنزهات والمطاعم ونواصي الشوارع والمتاجر؛ يبدوأنهم يعانون مما يعرف باسم الخوف من الصمت؛ في بعض الأحيان يكون الأمر مرهقًا، لأنك لا تنعم بدقيقة من الصمت

تنصت فيها إلى فِكَرِك أو إلى تغريد الطيور في الصباح، غير أنك لن تشعر مطلقًا بالحزن أو الوحدة وسط هذه الموسيقى المفعمة بالحيوية.

ويتذوق الأتراك كل أنواع الموسيقى، من الأغنيات الشعبية إلى المقطوعات العثمانية الكلاسيكية وموسيقى البوب المعاصرة، وبالرغم مما يقال فإن عددًا كبيرًا من الأشخاص يقرون باستمتاعهم الآثم بموسيقى الأرابيسك وعواطفها المبالغ فيها؛ وبالطبع فإن النجوم في تركيا يلقون معاملة خاصة، وخاصة الموسيقيين والمغنين، يكادون يُعاملون بتقديس.

تحدثت بالفعل في رسالة سابقة عن مكانة الأسرة، لكن فكرة الأسرة في تركيا تتجاوز كيان الأسرة المفردة؛ فالأتراك يربطهم التزام مشترك تجاه غيرهم من البشر، وينظرون إلى المجتمع كله أنه امتداد لأسرتهم الصغيرة، يضعون الأسرة فوق أي اعتبارات أخرى؛ فمن الضروري في رأيهم أن تكون الحياة في المجتمع متناغمة؛ فلا يلقون بالًا للقيود ومبادئ الخصوصية التي نفرضها في الغرب على أنفسنا، بل إنهم يتناولون المقبلات معًا ويشربون الشاي من نفس الإبريق، ولا تجد تركيًّا يأكل وحده، أو يموت وحده، أو يخرج في رحلة وحده، أو يسير في الطريق وحده.

ويتسم الأتراك أيضًا بالعاطفية والانفعالية؛ يميلون بطبيعتهم للمبالغة والتأثر الشديد والإفراط في الانفعالات؛ إنهم أشخاص ميالون للعناق، وعواطفهم رقيقة، ومشاعرهم فياضة، وأحاسيسهم مبالغ فيها مثل أهالي تكساس؛ فكثيرًا ما تكون أغانيهم حزينة وكئيبة.

في أحيان كثيرة يكون الوجه الهزلي المبتهج للشخصية التركية ذا طبيعة كئيبة؛ لذا فإن موضوع الاستياء من الاغتراب يظهر بقوة في الأعمال السينمائية والأدبية والموسيقية؛ تعتبر المآسي جزءًا طبيعيًّا من الحياة، ويمكن رؤيتها في الأفلام القديمة التي تُعرض باستمرار في التلفزيون،

وفي الأغنيات، وفي الصفحات الأولى للصحائف التي تمتلئ بجرائم الشرف والمآسي العائلية وغيرها من الحوادث الشخصية المفجعة المصحوبة بصور ملونة عالية الجودة.

يتعامل الأتراك بعضهم مع بعض بلطف محبب؛ فيتبادلون دائما اللمسات واللكزات والابتسامات والملاحظات الساخرة، ويضعون أيديهم على صدورهم ويرددون اسمك كثيرًا أثناء حديثهم معك، ولا يمكنهم رؤية طفل دون أن يقوموا غريزيًّا بالتربيت عليه، أو قرص وجنتيه، أو حمله وقذفه في الهواء، أو تقبيله.

والجميع يعلي قدر الشعر، وما زال تقليد إلقائه موجودًا بقوة؛ إذ يستطيع أغلب الأتراك إلقاء قصيدة واحدة على الأقل لشاعرهم يونس أمرهْ أو لمولانا، ويمكنهم أيضًا التغني بكلمات كل أغانيهم العاطفية المفضلة، حتى إن السلاطين العثمانيين نظَموا الشعر عند الفراغ من الحملات الحربية.

من أهم سمات الأتراك الفضول؛ إذ يراقبون كل شيء، من باعة أدوات المطبخ الراكبين على المراكب، إلى المشاجرات بالأيدي، إلى حوادث تصادم السيارات، إلى حفلات الزفاف، إلى الأشخاص الذين يقرؤون الكتب؛ فلا يريدون أن يفوتهم شيء.

في البداية ظننت أن كل حركاتي ولفتاتي تحيرهم لأنني أجنبية، ثم اكتشفت أنهم يفعلون ذلك مع الجميع؛ ذات مرة حاول صديقي الشاعر أن يحدثني عن مولانا الشيخ الصوفي برهان الدين معلم ونحن نقف أمام قبره في قيصري، وخلال خمس دقائق كان قد جذب حشدًا من اثني عشر شخصًا التفوا حوله للاستماع إلى "محاضرته".

وفي مناسبة أخرى كنت أستمتع بقيادة السيارة من بويابت إلى سينوب، ثم أوقفت السيارة بعد ممر تشينجل مباشرة للاستمتاع بالمشهد من أعلى

وتناول ثمرة إجاص، وخلال دقيقتين توقفت سيارتان وخرج عشرة أتراك وأحاطوا بي، وهم يتحدثون ويعرضون عليّ الماء وفاكهة أخرى؛ بما أنني توقفت فلا بد أن يكون هناك سبب، ولم يرغبوا أن يفوتهم ذلك.

ومرة أخرى ذهبت لزيارة سوق في أزينا وهي قرية خالية تمامًا إلا من متجر حلاق وبقال وخباز، ترجلت عن الحافلة لا ألقي بالًا لشيء، وسرت تجاه السوق وبدأت ألتقط الصور، وكما حدث معي في ممر تشينجل ظهر تسعة رجال من حيث لا أدري، كانوا يقودون سياراتهم ثم قرروا التوقف لمراقبة ما أفعل؛ وتحولت زيارتي البسيطة للسوق إلى مهرجان عام بفضل ثرثرتهم وتدافعهم والتحديق إلى الكاميرا وطرح مختلف الأسئلة عليّ، لم يتوقف الأمر عند هذا الحد؛ فعقب الزيارة اقترب مني جندي يحمل مدفعًا رشاشًا، وأخبرني أن العمدة -الذي كان يراقب كل ما يحدث من نافذته في مبنى مجلس المدينة المجاور- يدعوني لتناول الشاي في مكتبه؛ فتحوّلت زيارتي البسيطة لسوق قديم إلى لقاء دبلوماسي كامل استمر أكثر من أربع ساعات.

الأتراك مهتمون بالعالم من حولهم، وهم مستعدون دائمًا للانفتاح على أفكار جديدة، وعلى الأخص يريدون أن يعرفوا الطريقة التي يفكر بها الأجانب؛ فذات شتاء بعد أن تناولت غداءً مذهلًا عبارة عن يخنة لحم الحَمَل ''هونكار بيندي'' في مطعمي المفضل ''هافوزلو'' في السوق المغطى كابالي تشارشي بإسطنبول، قررت أن أتجرأ وأطلب معروفًا من رئيس العاملين وأنا خارجة؛ سألته عن إمكانية أن أشتري أحد أطباق المطعم، وبالطبع فاجأه السؤال، ثم نظر إليّ شزْرًا وقال: ''سيدتي، ماذا ستفعلين به؟ لماذا ترغبين في شراء أطباقي؟'' أدركت أنني أول شخص يطلب منه هذا الطلب، ولأنه تركي فهو فضوليّ بطبعه فأراد أن يعرف السبب.

حينما شعرت بقلقه من العملية برمتها، علمت أنني يجب أن أتوصل إلى سبب مثير ومطمئن، أو سأخرج من المطعم صِفْرَ اليدين؛ فوضحتُ له أنني "أجمع قوائم الطعام والأطباق من مطاعمي المفضلة حول العالم"، وأضفت بابتسامة عريضة على أمل أن أنال مرادي: "ومطعمك من أفضل المطاعم في العالم في نظري"، لكنه لم يبادلني الابتسامة، فأكملت كلامي قائلة: "أقوم ببروزة قوائم الطعام وتعليقها في مطبخي لتلهمني وأنا أطبخ؛ فعندما أنظر إليها أتذكر الوجبة التي استمتعت بها والمكان والصحبة التي كنت فيها، أما الأطباق فعندما أتناول الطعام فيها أتمنى أن يستمد لذته من ذكريات طعام قدمه طهاة ممتازون، وهدفي من ذلك أن أكرّم مهارتهم وقدرتهم؛ أستخدم هذه الأطباق وكلي أمل أن يكون الطعام الذي أعده في مثل لذة الطعام الذي تناولته فيها من قبل، وعندما يأكل ضيوفي في هذه الأطباق أتمنى أن يشعروا بنفس السعادة التي شعرت بها وأنا آكل فيها، كما شعرت اليوم وأنا أتناول طبقك الرائع "هونكار بيغيندي"، سكتُّ لحظة لألتقط نفسًا عميقًا، بينما واصل رئيس العاملين التحديق إليَّ، ثم أجابني في النهاية قائلًا: "حسنًا، يا سيدتي، هذا كلام رائع، لكنني ما زلت لا أفهم ماذا ستفعلين بأطباقي!".

ومن السمات الأخرى للأتراك أنهم لا يتقيدون بأي قيود، ولعلها أهم سمة تحتاج للاعتياد، لأنها غالبًا ما تبدو للأجانب أمرًا مهينًا وعدوانيًّا؛ يفعل الأتراك بك ما يحلو لهم ببراءة بصورة تلقائية؛ فقد يجذبون الصحيفة من يديك أو يلكزونك أو يجلسون بجوارك مباشرة -ليس بالقرب منك بل ملاصقا لك- على مقاعد المتنزهات أو يربتون على كتفك أو يطرحون عليك أسئلة مباشرة جدًا "يبدو أنك تبلغين خمسة وأربعين عامًا، هل هذا صحيح؟ لماذا ترتدين نظارات شمسية قديمة الطراز كهذه؟"؛ يفعلون كل ذلك دون أدنى قصد لإزعاجك، بل بدافع فضولهم بما حولهم؛ يستحيل

أن تستطيع الجلوس في هدوء على مقعد متنزه أو في مقهى أو أن تُترك وحدك لتستمتع بزيارة مكان ما أو أن تتمتع بفطور هادئ دون أن يأتي شخص ويقرّب مقعدًا ليجلس معك.

والأتراك يحدقون إليك مباشرة ولا يعدون هذا التصرف إساءة، بينما تنظر ثقافتنا الغربية إلى التصرف باعتباره فظًّا لا يحترم خصوصية الآخرين، أما الأتراك فيعدون ذلك وسيلة لإبداء المودة، هل تذكرين -يا سيدة ماري - كيف حدقت إليكِ النسوة ولكزنك عندما زرت مكانًا عامًّا؟ هذا بالضبط ما أتحدث عنه.

كذلك يهتم الأتراك بمعرفة ما يثير اهتمامك؛ فذات مرة وأنا في قيصري ظل حارس المتحف يلاحقني -باهتمام- من غرفة إلى غرفة، ويقف بجواري وأنا أدون ملحوظاتي وأرسم، حتى إنه كان يمد رقبته ليراقب ما أفعل، وعندما لم يتمكن من الرؤية بوضوح اقترب مني بشدة، وفجأة لم أستطع تحمل المزيد، فأغلقت الكتاب بقوة وقلت له: "يكفي هذا!"؛ فارتسمت أمارات الألم على وجهه، حينها أدركت أنه لم يكن يتصرف بدافع الفضول، بل كان يبدي اهتمامه بما أفعل لأنني أقف في نطاق سلطاته.

يتحلى الأتراك بروح وطنية عالية، ويشعرون بالفخر ذاته الذي يشعر به الأمريكان عند رفع علمهم، ويطلقون على طائراتهم أسماء مدنهم وأنهارهم المفضلة، ويفتخرون بشدة أنهم أتراك تجمعهم اللغة والثقافة.

تنبع كثير من عادات الأتراك من مبادئ وتعاليم الإسلام، مع عدد من العادات المثيرة للاهتمام من عصر الجاهلية؛ يتمسك بعض الأتراك بالقيم التقليدية لأسلافهم القبليين؛ فتجد بعضهم يعلقون خرزة زرقاء في متاجرهم أو سياراتهم، وهي عادة يعتبرها البعض وسيلة لتأمين الحياة

بينما يراها الآخرون أداة للزينة ليس إلا، وبعض الأتراك لا يمرون على شجرة مقدسة دون ربط شريط النذْر.

يكره الأتراك أن يعارضهم أحد، وربما هذا ما أشار إليه الفرنسيون عندما وصفوهم بالعناد؛ ذات مرة طلبت من ماسح أحذية تلميع حذائي المفضل المصنوع من الجلد الأزرق الأدكن، وأكدت أن لون الحذاء أزرق أدكن وليس أسود، وطلبت منه ألا يستخدم ملمعًا أسود، فأومأ برأسه وأخرج علبة وفتحها، فأدركت من فوري أنها ملمع أسود، فطلبت منه التوقف، فغضب بشدة وقال: ''سيدتي الأجنبية، هل تظنين حقًا أنني غير قادر على التمييز بين اللونين! هذا هو اللون الصحيح!''، بالطبع كان الملمع أسود، وتدمر حذائي الأزرق الرائع للأبد بسبب عِناد هذا التركي الذي رفض الإقرار بأنه لا يحمل معه ملمعًا أزرق أدكن.

يتمتع الأتراك بحس الدعابة، ولا يأخذون الأمور الخاصة بهم بجدية تامة؛ فيمكنهم السخرية من أنفسهم، ويمكنهم انتقاد أنفسهم بسهولة، ويتقبلون مصائب الحياة بنظرة قدرية رحبة المدى؛ فلا يتوقعون كل شيء أن يكون على ما يرام لأنهم يؤمنون أن الحياة نفسها ليست كاملة أو خالية من النقائص، لكنهم متفائلون ويعلمون كيف يضحكون من أعماقهم؛ قد يجلسون بصبر ساعتين عند انقطاع التيار الكهربائي، وينتظرون ساعات أن تأتي الحافلة دون أي شكوى.

لن يقر تركي مطلقًا أنه لا يعرف إجابة سؤال وُجه إليه، أو أنه لا يعرف ما يفعله، فإذا لم يعلم الطلب الذي طلبته في المطعم سيحضر لك طبقًا من كل صنف حتى يضمن إرضاءك، وإذا وظّفت سائقًا خاصًّا ليوصلك إلى مكان معين، فلن يعترف -من البداية قبل الانطلاق- أنه لا يعرف المكان الذي تبحث عنه، الأتراك لا يكذبون؛ أنتِ محقة في ذلك يا سيدة

ماري، لكنهم يخفون جهلهم بسرد قصص طويلة أو تقديم ذرائع تكون مسلية غالبًا.

الأتراك رجال أعمال ألمعيون مغامرون، حاضرو البديهة في مشاجراتهم، قادرون على تحقيق الأشياء وإنجازها؛ فهم يذكرونني جدًّا بالأمريكان.

كما يتمتع الأتراك بحس عالٍ بالمبادرة الفردية يصاحبه إحساس بالالتزام لضمان التماسك الاجتماعي، وهذا ما يجعلهم يدًا واحدة في أوقات الصعاب والأزمات، كما أنهم تواقون للتقدم، ماهرون عندما يتعلق الأمر بالنقود، ويتمتعون بقدر هائل من الشجاعة الشخصية؛ الأتراك أشداء الشكيمة ولديهم قدرة على مواجهة الحمقى، باختصار إنهم قادرون على الصمود.

وفي النهاية أختم ببعض ملاحظاتي المتفرقة:

الأتراك كلهم حيوية وحماسة، يطلقون بنادقهم في مباريات كرة القدم ويصفقون عندما تهبط الطائرات بسلام.

لا يحتقرون الشحاذين بل يرونهم أشخاصًا مستحقين للزكاة؛ يساعدونهم على تأدية تلك الفريضة.

الأتراك لا يجيدون السباحة لإنقاذ أنفسهم، ولا يقرؤون الكتب على الملأ، ويفخرون جدًّا بروحهم الرياضية خاصة عندما يتنافسون على ملاعب أوروبا، وفوق ذلك يمكن قراءة وجوههم بسهولة بالغة.

سأتحدث عن سخاء الأتراك ولطفهم المشهود في رسالة أخرى، وكما أَعُدُّ البلد وطني الأمّ ''تركيتي'' أَعُدّ الأتراك أبناء وطني الأم ''أتراكي''؛

هـذه رؤيتـي لهـم، وأتمنى ألا تبخسـهم رؤيتي حقهـم وألا تجور عليهم؛ فهـل لاحظت إحدى هذه السـمات فـي معلمكِ أحمـد أو في صديقاتك أو خدمك أو في أحد الجنود الإنكشاريين خَمْس المئة؟

لعل أشهر مقولة لأتاتورك، مكتوبة على لوحات الإعلانات، ومنقوشة علـى قواعد تماثيله المنتشـرة في ميـدان كلّ قرية، ومطبوعـة على أبواب مجلـس المدينـة، ومكتوبـة فـي أروقـة أغلب المبانـي العامة، ومرسـومة علـى جوانـب الجبال، هـي العبارة الخالدة: "سـعيد من قـال أنا تركي"؛ إذا كانت الشـخصية التركية تتمتـع بكل السـمات الشـخصية التي تمكنت من ملاحظتها، فإن أتاتورك معه كل الحق في التوعية بهذا المورد الوطني الطبيعي الغني؛ لا تعكس هذه العبارة فخرًا زائفًا، بل حان الوقت أن يعلن كل تركي هذه الحقيقة بأعلى صوته ليسمعها العالم كله.

صديقتكم

قدرية برانـنج

ديار بكر مدينة البطيخ، وأسوار المدينة التي يمكن رؤيتها من الفضاء

تمثال لعاشق التُوليب السلطان أحمد الثالث من كتاب في لندن نُشر عام ١٧٤١م

تذكرة اليانصيب التي تحمل التفاؤل دائمًا

حديقة أزهار في بورصة

بيت طيور حجري عثماني، مجمع بايزيد الثاني في أماسيا

سوق للأزهار البلاستيكية في قيصري

ورود من أجلك

إبراهيم كوتلوأي، نجم المباريات نصف النهائية لبطولة كرة السلة الأوروبية عام ٢٠٠١م

''أجنحة الأتراك'' المقدسة

حديقة مزهرة لأزهار زيت الزيتون في مانيسا

لوحة غرفة الختان في قصر طوب قابي

وردة مثالية في توقات

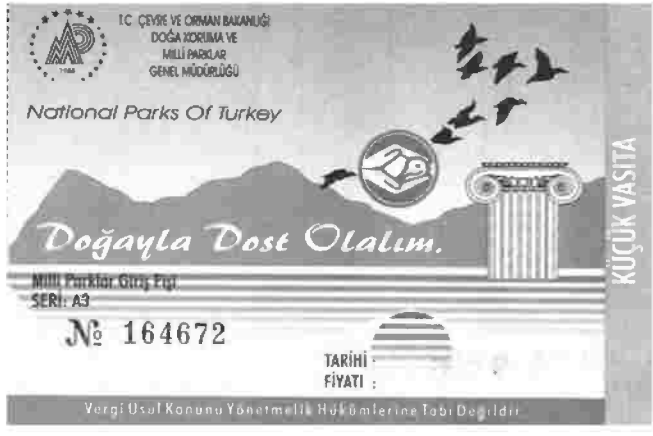

فلنكن أصدقاء الطبيعة

ورود على إبريق الشاي

إيصال تبرع لأحد الأندية الرياضية

زخرفة ملونة على إحدى الحافلات

مدينة توقات

قونيا: ”ممنوع الجلوس“

الرسالة الثالثة عشرة

ضجة في العالم

عزيزتي السيدة ماري،

تصفين النساء في رسائلك وصفًا دقيقًا للغاية، وسواءٌ كنت في راتيسبون أو فيينا أو ''أدرنه'' أو باريس لم تتواني عن رسم صور حية ومذهلة للنساء الأوروبيات اللاتي قابلتهن بأدق التفاصيل لموضوعاتهن المفضلة.

وبعد أن وصلتِ إلى تركيا واصلت مراقبة النساء التركيات بعينيك الحادتين، وكانت ملاحظاتك عنهن بمنزلة معلومات مهمة للمؤرخين ودُعاة المساواة بين الجنسين في شؤون الحياة اليومية في تلك الفترة، وكانت لقاءاتك بالنساء -أثناء رحلتك عبر أوروبا- بمنزلة محك مهم لقياس لقاءاتك بالنساء في تركيا؛ فقد تركت لنا -يا سيدة ماري- أربع رسائل بارزة خالدة تصفين فيها زياراتك لسيدات تركيات، تقدمين فيها رؤية نافذة لا لشخصية النساء فحسب بل لشخصيتك أنت أيضًا.

بخلاف تلك الرسائل الأربع، ثمة رسالة قد تكون الأشهر بين كل ''رسائل السفارة''؛ لأنها ألهمت حركة الاستشراق في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر، وفيها تسردين وقائع زيارتك لحمام عام تركي في صوفيا؛ فقد اعتمد محبو الغرائب على هذه الرسالة بشكل خاص لجمع كل التفاصيل المثيرة الخاصة بعادات حمام البخار التركي، وأثار الأمر اهتمام الرسام الفرنسي آنجر؛ فاستعان بألوانه الزيتية وفرشاته وأعمل

مخيلته الواسعة لتمثيل أوصافك الدقيقة لطقوس الاستحمام وعمارة الغرف، مبتكرًا اللوحة الاستشراقية الشهيرة "الحمام التركي".

في الواقع هذه الرسالة من أقرب الرسائل إلى قلبي؛ لأنها تصف النساء التركيات بكل صدق وحب؛ لقد قررتِ -يا سيدة ماري- أن تذهبي إلى الحمام متخفية، واستأجرت عربة تركية لتوصلك إلى الحمام في الصباح الباكر؛ فهل ظننت حقًا أن دخولك إلى حمام به أكثر من مائتي سيدة لن يكون ملاحظًا؟ لو كنت مكانك لعدت أدراجي، لكنك حافظت على رباطة جأشك وخضت التجربة؛ ها هي العبارات الدقيقة التي تصفين بها أربعمائة العين التي وُجّهت إليك:

> "كنت أرتدي ملابس السفر، وهي فستان لركوب الخيل، وبدا لهن بلا شك زيًّا غير معتاد، لكن أيًّا منهن لم تبد أدنى دهشة أو تنظر بفضول غير لائق، بل استقبلنني بكل لطف وكياسة ممكنة؛ فلا أعرف أي بلاط أوروبي تتصرف فيه السيدات بهذا اللطف تجاه شخص غريب، أعتقد أن المكان ضم في المجمل مئتي سيدة، ومع ذلك لم أر ابتسامة ازدراء أو أسمع همسًا ساخرًا كما يحدث دائمًا في تجمعاتنا عندما يدخل شخص لا يرتدي ملابسه وفقًا لأحدث صيحة، وظلت النساء ترددن مرارًا وتكرارًا: «ساحر! هذا ساحر!» وجدت الكثيرات منهن يتمتعن بقوام متناسق متناسب كأجمل آلهة رسمها جويدو أوتيتيان، وبشرتهن تبدو... كأحسن تمثيل لآلهة الجمال والسحر والسعادة... طلبت مني السيدة التي بدت أعلاهن شأنًا أن أجلس بجوارها، وكانت على أتم استعداد لمساعدتي، لكنني اعتذرت بصعوبة؛ لقد افتتنت بلطفهن وجمالهن".

أما الرسائل الأربع الأخرى فتصف بالتفصيل زياراتك الشخصية لمنازل سيدات تركيات، فكانت الزيارة الأولى لمنزل سيدة تجاوزت

الخمسين من عمرها هي "حرم رئيس الوزراء العثماني"، زوجة أرناند خالد باشا؛ إذ تلقيت دعوة لتناول العشاء في منزلها في أدريانوبل "أدرنة اليوم"، واصطحبت معك مترجمك اليوناني، تم استقبالك بلطف كبير واحتفاء، وقدم لك خَدمها كمية هائلة من الأطباق قاموا بتعطيرها بعد العشاء، بالرغم من طيبة السيدة وجدتِ شخصيتها فاترة؛ لأنها تكرس أغلب وقتها للأعمال الخيرية والصلاة.

لكن زيارتك الثانية تجلت في واحدة من أروع رسائلك؛ فبعد مغادرتك للعشاء الفاتر مع حرم رئيس الوزراء العثماني، أقنعك مترجمك اليوناني بزيارة فاطمة زوجة الضابط الثاني، فوجدتها أكثر حيوية من العجوز المتدينة؛ استقبلتك فاطمة بأدب جمّ، وأقامت لك حفلًا موسيقى، وأهدتك مجموعة من المناديل المطرزة وأنت خارجة؛ يا له من وصف أسطوري الذي كتبته عن هذه المرأة الآسرة:

> "فاطمة الزهراء، هذا اسمها، تفوّق هذا القدر من الجمال على كل شيء رأيته وعددته جميلًا سواءٌ في إنجلترا أم في ألمانيا، ولا بد أن أعترف أنني لم أر شيئًا بهذا الجمال الباهر، ولا يمكنني التفكير في وجه يقترب من جمال وجهها.
>
> وقفت تستقبلني، وحيّتني بطريقتهم الخاصة، بأن وضعت يدها على صدرها برقة تمتلئ عظمة لا يمكن أن تفرزها التربية في أي بلاط، ثم أعطت أوامرها بتوفير الوسائد لي، وحرصت على إجلاسي في الركن، وهو مكان شرف مميز...؛ عقد الانبهار لساني حتى أنني لم أتمكن من الحديث معها؛ فقد كنت مأخوذة تمامًا بما رأيت؛ ما هذا التناغم الرائع بين قسماتها! ما أجملها كلها! ما هذا القوام الممشوق المتناسب بدقة! ما أحلى تورد بشرتها المثالية! ما أبدع ابتسامتها التي لا توصف! ناهيك عن عينيها، إنهما عينان واسعتان سوداوان يشوبهما حزن دفين! يكشف وجهها عن سحر

جديد مع كل لفتة! ومع هذا تتصرف بكياسة وعذوبة، وحركاتها رشيقة تغلفها العظمة، لكنها بعيدة كل البعد عن جمود المشاعر الذي أؤمن به، ولو أنها اعتلت فجأة أرفع عرش في أوروبا فسيظن الجميع أنها وُلدت وتربت ملكة، مع أنها تعلمت في بلد نعده بربريًّا؛ باختصار: ستتوارى أجمل جميلات إنجلترا عن الأنظار إذا وقفت إلى جوارها، أما أنا فلا أخشى أن أعترف أن متعة النظر إلى فاطمة الجميلة أكبر بكثير من مشاهدة أجمل تحفة''.

قلت لها وأنت تودعينها يا سيدة ماري: ''لم أستطع منع نفسي من تخيل أنني كنت في الجنة، وأن ما رأيته فيها أسرني''.

أما ثالثة الزيارات التي تحدثتِ عنها، فكانت للسيدة حفصة -حظية السلطان مصطفى الثاني، الذي خلعه السلطان أحمد الثالث، وتوفي عقب أسابيع قليلة بالتسمم- تصفين ملابسها ومصاغها بالتفصيل، مع الإشارة إلى زمردة بحجم بيضة الدجاج الرومي، وإلى القرط المرصع بجواهر في حجم ثمار البندق الكبيرة، وإلى أكبر الخواتم الماسية التي رأيتها في حياتك: ''أنا واثقة أن ملكة أوروبية لا تقتني نصف هذه الكمية، ومع روعة مجوهرات الإمبراطورة فإنها ستبدو هزيلة بجوار هذه المجوهرات''.

قدمت لكِ العشاء على مناديل في مائدة فاخرة مخيطة بخيوط الذهب، وبعد انتهاء العشاء تجولت في حديقة السيدة حفصة، واصطحبتك إلى غرفة نومها حيث كل قطع فرائها ملقاة دون اهتمام على الفراش، لم تنطل عليك الخدعة؛ وسرعان ما أدركت أنها تحاول التباهي أمامك بمجموعتها.

زيارتك الرابعة -يا سيدة ماري- كانت أيضًا إلى منزل فاطمة الجميلة في القسطنطينية بعد مرور عام، وتضمنت كالمعتاد رؤية مهجعها ومشاهدة عرض موسيقيٍّ يؤديه خدمها، إلا أنك تمكنت هذه المرة من التحدث

معهـا باللغة التركيـة؛ ولهذا وجدتِ ''ذكاءها أخّاذا تمامًا كجمالها''، ومرة أخرى أذهلتك هذه المرأة ''الجميلة كالملاك''، وحين قلتِ لها: ''سيثير جمـال وجهـك ضجة في باريـس!'' أجابتك قائلـة: ''لا أصدقك، لو كان الجمال عالي الشـأن في بلدك كما تقولين لما تركوك ترحلين''؛ لا يمكننا مقاومة سحر هذه المرأة، فنحن مثلك تمامًا.

أثناء إقامتك في تركيا يا سيدة ماري، أتيحت لك الفرصة في مناسبات أخرى لإبداء آرائك في النساء التركيات، خاصة جمالهن وزينتهن وأزياءَهن والحريـة التـي يتمتعـن بها؛ لا خـلاف أن جمال النسـاء التركيات سـلب لُبّك؛ تقولين في رسـالة أرسـلتها إلى أختكِ السـيدة مـاري في الأول من أبريل/نيسان عام ١٧١٧م: ''لم أر في حياتي كل هؤلاء النسوة الجميلات، لا بـد مـن الإقـرار أن الجمـال شـائع هنـا أكثـر ممـا هـو شـائع عندنا؛ مـن المسـتبعد أن تجـدي امـرأة غيـر جميلة؛ فهـن يتمتعن بأجمل بشـرة في العالم وبأعين سوداء واسعة عادة''.

علاوة على تعليقك يا سيدة ماري على جمال وأناقة النساء التركيات، فمـن التعليقات المهمة التي أبديتهـا موضوع حريتهن؛ فأنت تصرّين على أن النسـاء المحتجبات هن أكثر النسـاء حرية في الحقيقة: ''يمنحهن هذا الـرداء التنكري الدائم الحرية التامـة'' ثم اختتمتِ تعليقك قائلة: ''أنا أعدّ النساء التركيات بوجه عام الأشخاص الأحرار وحدهم في الإمبراطورية''.

حظيـت أنا أيضًـا بفرص كثيرة لمراقبة النسـاء التركيـات، وأظن أنني كنت أوفر منك حظًا لأنني شـاهدت نسـاء من مختلف المسـتويات، ليس فقط سـيدات البلاط الأرسـتقراطيات ذوات الأقراط الماسية بحجم ثمار البندق اللاتي يقضين أوقاتهن في اللهو الدائم ويفسـدهن أزواجهن بتلبية كل رغباتهن؛ فثمة الكثير لنعرفه عن النسـاء التركيات خارج طبقة الحريم الأرستقراطية.

قابلتُ مجموعة واسعة من النساء التركيات، وتحدثت في موضوعات متخصصة مع نساء يدرن مكتبات، وتلقيت العلاج على يد طبيبات، وجمعت ثمار البندق مع زوجات المزارعين، وناقشت السياسة مع محاميات، وتعلمت طريقة تحضير الكباب على يد ربات بيوت، واشتريت مصوغات ذهبية مع نساء من إسطنبول وأوعية بلاستيكية من قونيا، وقرأت رسائل نصية على هاتف محمول لامرأة قروية غير متعلمة، وجلست مع نساء ريفيات في مقاعدهن بالقرب من النافذة نراقب الطريق.

كثيرًا ما يقال: "إن تركيا بلد التناقضات والصراعات المحتدمة بين عوامل متعددة"؛ أعتقد أن هذه المقولة صحيحة خاصة عندما يتعلق الأمر بالنساء؛ فمن جانب تقف النساء على أعتاب عصر جديد من المهنية؛ فنسبة الطبيبات والأستاذات الجامعيات في تركيا تزيد عن نسبتهن في أمريكا وأوروبا، ومن جانب آخر ما زالت النساء في القرى يتعرضن للقتل على أيدي أقاربهن إذا لطّخن شرف العائلة، وهي حوادث ترد بتفاصيلها في الصفحات الأولى للصحف موضحة بصور ملونة.

شاهدت نساء متشحات بالسواد من قمة رأسهن لأخمص أقدامهن، ونساء سوى ذلك، ورأيت نساء يمنعهن الحياء من رفع رؤوسهن لأعلى، ونساء جريئات وقحات استحييتُ من جرأتهن مع الرجال.

لطالما وُجد هذا التناقض في الثقافة التركية؛ ففي عصر الدولة العثمانية أدارت البلاد مجموعة من الملكات الأمهات القويات على مدار أكثر من مائة وثلاثين عامًا، وسادت "سلطنة النساء" الشهيرة خلال القرنين السادس والسابع عشر.

من بين النساء اللاتي هيمن على الحكم نقشيديل فرنسية المولد ذات النفوذ والدة السلطان محمود الثاني (١٧٨٥-١٨٣٩م)، شجعت ابنها على

إجـراء مجموعـة إصلاحات غربية شـاملة، كما منح أتاتورك النسـاء حق الاقتـراع عام ١٩٣٤م قبل أن تفعل فرنسـا ذلـك عام ١٩٤٤م، وكان يعلن دائمًـا أن العالـم يمكنه الحكم على أية دولة بالنظر إلى طريقة تعاملها مع النساء؛ أجد هذه المقولة من بين كل آرائه السياسية الأقرب إلى نفسي.

حدثتـكِ يا سـيدتي عن الاختلافات الجسـدية المتفاوتـة بين الرجال الأتـراك، وبالطبـع ينطبق ذلـك على النسـاء أيضًا؛ فتجديـن بينهن ربات البيـوت ذوات أغطيـة الـرأس الحريريـة ومعاطـف المطـر، والقرويـات متغضنـات الوجـه كالأشـجار العتيقـة وأعينهـن مشـرقة باسـمة تطـل من وسـط أغطية رؤوسـهن، وتجدين فتيات يرتدين مثل ملابسـنا يمشين بثقة ممسكات بأيدي أمهاتهن المتشحات بمعاطف طويلة فضفاضة تصل إلى الأرض وأغطية رأس تكسوها الزهور.

أذهلتنـي عـدة سـمات سـائدة بين النسـاء التركيـات، ومن أبـرز هذه السـمات فطنتهن وشـجاعتهن وسـعة حيلتهـن؛ فهذا النوع من النسـاء لا يقبل الترهات ويعمل بجد وينجز المطلوب، إنه النوع الذي يدير المزارع والأعمـال والعائـلات؛ فتركيـا اليوم متماسـكة بفضل النمـوذج العصري لسـلطنة النساء ليست النسـاء المتآمرات اللاتي رأيتهن في جناح الحريم، بـل النسـاء اللاتـي يدرن عجـلات المهن الحـرة ويحرثـن الأرض؛ إنهن سـيدات يتميزن بالحياة العملية ويفخرن جدًا بمنازلهن، ويؤمِنَّ أن المنزل المرتب بعناية حسن التأثيث دليل على الحب؛ يتمتعن بأيدٍ سريعة نشطة، تربط الشـرائط وتحْضِـر فطائر اللحم وترفـع الصحـون وتطرز المفارش؛ إنهن نساء عازمات قويات الإرادة يغلّبن العقل والمنطق.

لا تعد فكرة ''المرأة العاملة'' فكرة حديثة على النسـاء التركيات، بل ظلت النسـاء مئات السـنين يعملن في أرض الأناضول، ويحملن السلاح

أثناء حرب الاستقلال، ويجمعن المحاصيل من حقول القطن والقمح والتبغ، ويعتنين بالماشية والدواجن، ويحملن الحطب والماء، ويَفرزن الفواكه والبصل، ويعتنين بالمنازل، ويربين أطفالا كثيرين، ويحكن السجاجيد البديعة.

توجد اليوم أكثر من خمسة ملايين امرأة تعمل في الأراضي التركية؛ تجز صوف الأغنام وترص الفاكهة وثمار البندق لتجف وتحيك الجوارب والسترات وتصنع الجبن والزبد، هؤلاء النساء يعملن في الشمس الحارقة في حدائق الخضراوات وبساتين الزيتون الساحلية وفي الحقول الحارة في السهول؛ يمكنك رؤيتهن راكبات العربات التي تجرها الحمير، أو جالسات في السوق بجوار صررهن، أو حاملات حزم ضخمة من العلف على ظهورهن، أو يجمعن القش بالشوكة.

أما على الصعيد الاحترافي، فقد شاهدت إعصارًا من النساء يجتاح سوق العمل؛ فرأيت نساء يدرن صيدليات أو مكتب البريد الكبير في إسطنبول، ويعتنين بكل العملاء، كالممرضات المتمرسات في غرفة الطوارئ، ويصدرن الأوامر للعاملين بسرعة وكفاءة، ويحيين الجميع، ويستقبلن الكل بابتسامة أو لمسة حانية أو كوب شاي.

تتحدث النساء التركيات بأسلوب مباشر جريء مثلهن في ذلك مثل الرجال، لكنكِ على الأقل قد تتقبلين السؤال عن عمرك من امرأة أفضل مما تتقبلينه من رجل.

النساء التركيات بالغات الود؛ تلقيت ذات مرة دعوة لحضور حفل للحناء في أفيون من عروس لم أقابلها قط لكنها رأتني جالسة وحدي، وفي مناسبة أخرى اعتنت بي مديرة مكتب فندق في ألبيستان وقامت بأمور تتجاوز نطاق واجباتها المهنية وفعلت كل ما بوسعها لتصاحبني.

قلتِ يا سيدة ماري في رسالتك عن زيارة الحمام: "لا أعرف أي بلاط أوروبي تتصرف فيه السيدات بهذا اللطف تجاه شخص غريب"، أضيف أيضًا أنهن محافظات جدًّا ويبدين الاحترام لمن هن أكبر سنًّا؛ لقد شاهدت الابنة البالغة في أسرة قيصري تحْضِر القهوة بأدب شديد إلى مكتب والدها في الطابق الثالث على صينية ذهبية تعلوها الأواني الخزفية الفاخرة ومناديل المائدة، وتضعها أمامه في هدوء.

صحيح أنني لم أنبهر بجمال النساء التركيات بقدر انبهارك به، لكنني أقر أنهن أنيقات ورقيقات لأقصى حد، سواءٌ كن يرتدين الحجاب أو النُّقْبة القصيرة، ويفضلن الأشياء البرّاقة والذهب والأزهار المطرزة على أغطية رؤوسهن والمعاطف الأرجوانية أو الزهرية مع حافظات صغيرة بنفس اللون، ويفضلن ارتداء الأحذية الأنيقة والحلي العصرية، وقد ظهرت مؤخرًا كتابات كثيرة حول أزياء المحجبات التي تُقام لها عروض أزياء خاصة، والغرض من هذه الأزياء هو أن تحافظ المرأة على حجابها وتظل أنيقة في ذات الوقت، بالإضافة إلى نشر فكرة أن الملابس الساترة قد تكون أجمل وأكثر أناقة من الملابس "الحاسرة"؛ بالفعل بعد أن قضيت الوقت مع فتيات قونيا الأنيقات اللاتي يرتدين أغطية رأس ومعاطف ملونة وحليًّا مميزة، تبدو نساء إسطنبول بإزائهن غير أنيقات.

تعد الرابطة بين النساء التركيات من أقوى الروابط؛ فهن معًا دائمًا سواءٌ في أقسام العائلات في المطاعم أو في غرف معيشتهن أو في الحافلات أو في المساجد، ولا يختلطن بالرجال في المناسبات الاجتماعية، بل يفضلن الجلوس في أحد الجوانب في حين يجلس الرجال في الجانب الآخر؛ لهذا لن تكون إقامة حفل مختلط فكرة قابلة للتطبيق هنا.

تعتاد الأمهات وبناتهن السير في الطرقات مثنى مثنى، وقد يحالفكِ الحظ وتشاهدين مجموعة من ثلاثة أجيال: أمٍّ وابنتها وحفيدتها.

إذا واجهتني مشكلة في الطريق، كنت واثقة أنني أستطيع الاقتراب من أية امرأة تركية لأطلب مساعدتها، وفي غضون لحظات أجد نفسي في كنف منزلها، بين يديها الرقيقتين القادرتين على علاج أي مرض أو حل أي مشكلة.

وهذه الرابطة الأخوية تسمو فوق فوارق المستويات والطبقات الاجتماعية؛ ذات مرة كنت في محطة حافلات قونيا أنتظر حافلتي إلى بيشهير، فلاحظت تنوعًا هائلًا في الشكل والمستوى بين الراكبات التركيات، مع أن أغلبهن قرويات مغبرات يحملن غرائر الحبوب وعبوات زيت الزيتون والصناديق المربوطة بالحبال، كانت هناك امرأة قروية ترتدي الشلوار (اسم سروال تركي فضفاض) وتحمل طفلًا يصرخ، وفجأة ظهرت امرأة متحضرة من إسطنبول ترتدي قُرْطًا ذهبيًّا حملت عنها طفلها، ومدت ذراعها في حقيبتها بحثًا عن قطعة حلوى لإسكاته.

حينما حضرت إلى تركيا في البداية عام ١٩٧٨م قَدّرت في ذلك الوقت في مذكراتي أن ٩٥٪ من النساء اللاتي رأيتهن محجبات، وينقسمن إلى مجموعتين مميزتين: مرتديات العباءة السوداء أو أزياء المحجبات، لم أر امرأة تقود سيارة وحدها أو امرأة تعمل نادلة أو تعمل في مجال الخدمات، ورأيت القليل من النساء يسافرن بالحافلات.

أما الآن فالنساء يغزون كل المجالات بسرعة؛ ففي عام ٢٠٠١م ضخت لي البنزين في السيارة فتاة في مدينة سيدا على البحر الأسود، وهي سابقة من نوعها، وفي عام ٢٠٠٢م تناولت الطعام في مطعم شواشت تديره النساء تمامًا دون وجود رجل واحد، وهو أمر لم يحدث من قبل،

والآن أرى النساء يقدن السيارات في كل مكان ويجلسن في المطاعم وفي اجتماعات الأعمال؛ إن الحكم على سلوك المرأة بناءً على ظهورها في الأماكن العامة نظرة قديمة بدأت تتلاشى بالفعل.

تشترك كل نساء العالم في مجموعة قيم عامة: دعم المجتمع، التمسك بالأمل، الإيمان بأهمية الفرد، الاهتمام بالمشاعر الشخصية، التضحية بالذات، العطاء بسخاء، وفوق كل ذلك ستظل النساء يفضلن القيم المجتمعية على القيم المادية.

تشترك كل نساء العالم في نفس مكونات الحياة الرئيسية: العمل، الأسرة، الحياة العاطفية، الروحانيات، الصحة، الأنوثة، الهوايات؛ فالنساء التركيات لا يختلفن عن كل نساء العالم.

ذات مرة أخبرني كاتب جزائري أن النساء هن "الرجال" الحقيقيون في هذا العالم، والأمر عائد إلى النساء لتعليم الرجال كيف يصبحون رجالًا بحق؛ من هذا المنظور ستظل النساء التركيات عاملًا قويًّا في بناء تركيا الحديثة، لأنهن يعلمن أكثر من غيرهن كيف تسير الأمور للأفضل في منازلهن ومع أبنائهن؛ إنهن لَبِنات الأساس الحقيقية لأي مجتمع ناجح؛ إذا فعلن ذلك فسيثرن ضجة تجعل صوت تركيا مسموعًا في جميع أنحاء العالم.

صديقتكم

قدرية براننج

عيادة صحية في أيوب

ساندكلي

الراقصات الشعبيات في سوغوت

أيوب

فرز البصل في سوق إسيز، أبوليانت

أرضروم

إعداد الرقاق

الرسالة الرابعة عشرة

امرأة وحيدة

عزيزتي السيدة ماري،

حدثتك في رسالتي السابقة عن النساء، لكنني أشعر برغبة في إضافة عدة نقاط أخرى، تتعلق بكوني امرأةً أجنبية في تركيا، ولا سيما أنني أسافر وحدي.

أشعر بالتآلف معك يا سيدة ماري، وبالرغم من القرون التي تفصلنا، فإن رؤيتنا للنساء متشابهة جدًّا؛ أنا قمت بتعليم نفسي مثلك، وأهتم بالأشياء نفسها التي اهتممتِ بها، مثل المساجد والآثار القديمة، والمناظر الطبيعية، والمباني، والحياة الاجتماعية، والتاريخ، وملابس النساء، والدين، والزواج والطلاق، والمساواة بين الجنسين، والشعر.

أشعر برغبة في فهم منزلة النساء ومكانتهن في العالم الذي يعشن فيه؛ فمثلكِ تعلمتُ اللغة التركية والشعر، وانشغلت بالحياة الاجتماعية والإسلام وشكّكت في عقيدتي بمقارنتها بغيرها؛ استطعنا -نحن الاثنتين- فهم موضوعات عدة بحكم أننا غريبتان تنتميان لطبقة اجتماعية معينة، وكم يحزنني فراق القسطنطينية، مثلك تمامًا!

غير أن أهم قاسم مشترك بيننا أننا اختبرنا الشعور بمكث سيدة في مجتمع تركي من دون زوجها؛ مكث زوجكِ في معسكر للجيش التركي بالقرب من "أدرنه" منذ سبتمبر/أيلول ١٧١٧م حتى مايو/أيار ١٧١٨م، إذ كان مسؤولًا عن إجراء مفاوضات دبلوماسية؛ مما اضطرك للبقاء وحدك في القسطنطينية نحو عشرة أشهر، خاصة طوال فترة إقامتك في إسطنبول؛ وها أنا ذا هنا من دون زوجي؛ لأنني اخترت السفر وحدي.

يصعب على الأتراك استيعاب أو تقبل فكرة أن تسافر امرأة وحدها باختيارها؛ لأن النساء يتعلمن منذ سن مبكرة رفقة الرجال (الأب أو الأخ أو الزوج)؛ فمن الصعب أن تجدي امرأة بلا مرافق؛ إذ تنص القواعد الإسلامية على حُرمة السفر للمرأة أكثر من ثلاثة أيام إلا مع زوج أو مَحرم؛ ذات مرة بالقرب من مدينة كنجال جلست إلى جواري في الحافلة فتاة عصرية، وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث، وبالرغم من حذائها البرتقالي العصري، فقد صُدمتْ عندما علمت أنني أسافر وحدي، وأكدت على استحالة أن تفعل ذلك؛ لأنه أمر غير وارد.

تحدثت إليك من قبل يا سيدة ماري عن طبيعة هذا المجتمع المترابط الجماعي، وأخبرتك كيف يعيش الأتراك في مجتمع متماسك؛ أعتقد أن هذا يصعّب عليهم إدراك الفرق بين أن يكون المرء وحده وأن يكون وحيدًا؛ فمن الممكن جدًّا أن يكون المرء وحده ولا يكون وحيدًا؛ إن ما نعده -نحن الغربيين- استقلالًا مرغوبًا يراه الأتراك وحدة؛ أعتقد أنك -مثلي- أدركت الفرق بين الحالتين، وقدّرت العزلة والخصوصية وفضلتهما، مع شعورك بالامتنان للصحبة الجيدة والترفيه.

بالرغم من تعرضي لنظرات استهجان في الطريق، ما زلت مواظبة على السفر وحدي إلى تركيا؛ حدثتك سابقًا عن متع السفر، غير أن السفر

منفردًا يمنحني شعورًا مختلفًا بالسعادة؛ فهو يتيح لي فرصة القيام بأمور ما كنت لأفعلها لو كنت في صحبة؛ إذ يمكنني زيارة المكتبات وقتما أشاء، ويمكنني الانفراد بنفسي لكتابة قرابة ثلاثمائة وخمسين كلمة يوميًّا، ويمكنني تناول الطعام الذي أشاء وقتما أشاء، ومن الأسباب الأخرى التي تدفعني للسفر وحدي أن أعزز قوتي وأثبت لنفسي أنني امرأة قادرة على الاعتماد على نفسها، وأنني امرأة شجاعة، واسعة الحيلة، ولا تحتاج إلى أحد للاعتناء بها.

تمنحني هذه الرحلات شعورًا بالقوة، يمكنني منحه للآخرين فور عودتي، إذا أمكنني التغلب على التحديات اللغوية والاجتماعية والدينية والثقافية في تركيا، فلا شك أن تحديات عملي وحياتي في مدينة التنوع العرقي الشاسع ستصبح أسهل.

من مزايا السفر وحدي أنني أمر بتجارب لم أكن لأمر بها مطلقًا لو كنت مسافرة بصحبة زوجي أو أية مجموعة؛ فالأتراك يغدقون على المرأة المنفردة في تركيا كل أنواع الاهتمام والعطف لأنهم لا يريدونها أن تشعر بالوحدة؛ لهذا فلن أستمتع باللقاءات والمحادثات وأتلقى الأزهار وأكواب الشاي لو كنت بصحبة رجل.

وأجمل ما في السفر منفردًا إمكانية السفر بأمان لأن تركيا بلد آمن جدًّا؛ فلا أشعر بالخوف فيه مطلقًا، وأجد نفسي أعهد بحياتي لعناية اثنتين وسبعين مليون يد حانية تمتد لخدمتي، وأحتل منزلة سيدة راقية في تركيا -أتذكرين حينما أخبرتك بذلك؟- ويحرص الجميع على معاملتي بأعلى درجات الاحترام والمراعاة.

لا تصدقي كل القصص التي تُروى عن سوء معاملة الأتراك للنساء؛ فكلها كاذبة، بالطبع لا بد أن تأخذ امرأة تسافر وحدها الحيطة أينما

كانت؛ إذ تتعلمين اختيار المطاعم بحذر، ولا بد أن تلتزمي بتناول الطعام في مطعم الفندق إن وُجد، وأن تذهبي إليه مبكرًا، وألا تعاقري الخمر لأن ذلك يعكس مستوى أخلاقيًّا مشينًا، إياك وفتح محادثة مع أحد، أو طرح أسئلة بجراءة، أو النظر للرجال في أعينهم مباشرة، أو ارتداء ملابس كاشفة والتجول بها؛ لم يعاملني أي رجل خلال ثلاثين عامًا من السفر إلى تركيا بقلة احترام، ولم أشعر بالارتباك من أي موقف، وهو ما لا يحدث عندما أسافر إلى دول أخرى، بما فيها بلدي.

تظل تلك العيون التركية الشهيرة مثبتة عليك لضمان سلامتك؛ فتصبحين جزءًا من المجتمع الواجب الحفاظ عليه؛ من أبسط التجارب التي مررت بها في هذا الصدد تجربة غنية، لخّصت عدة سمات اجتماعية في تركيا مثل الترابط والأخوة وحسن الضيافة واللطف الرقيق؛ دخلتُ المدرسة الخاتونية في قيصري لزيارة القبر في الركن، وعقب خروجي قررت التوقف عند المقهى الصغير المقام في الفناء لشرب الماء، وقفت خمس دقائق قبل أن تقترب مني امرأة وتقول: ''مرحبًا، عذرًا على الإزعاج! أتودين الانضمام إليّ أنا وصديقتي على مائدتنا؛ بما أنك وحيدة تمامًا؟'' لم تكن تعرفني، لكنها لم تشأ أن تتركني وحيدة.

ومرة أخرى وضعت امرأة رضيعها في حجري طوال رحلة الحافلة القروية، لم يكن السبب أنها تريد التخلص منه، بل لأنها تريدني أن أحظى بالصحبة.

وفي مناسبة أخرى كنت أتناول الطعام وحدي في أغيردير، فمر بي زوجان في منتصف العمر في طريقهما إلى مائدتهما، وانحنى الرجل أمامي برقة وقال: ''أتمنى أن تستمتعي بوجبتك، وإذا احتجت إلى أي شيء، فسنكون جالسين على المائدة المجاورة''.

تترك المرأة المنفردة أثرًا في نفوس الناس ويتذكرونها؛ العام الماضي تناولت في قيصري واحدة من أفضل وجبات إسكندر كباب في تركيا في مطعم إسكندر في وسط المدينة، كنت قد تناولت هذا الطبق منذ أكثر من عشرين عامًا ولا يمكن نسيانه؛ في ذلك اليوم ظل رئيس النُّدُل يحوم حولي باهتمام، وأخيرًا اقترب مني وقال: ''لقد حضرت إلى المطعم من قبل، أليس كذلك؟ أنا أذكرك، كيف حالك؟''، إما أنه يتمتع بذاكرة خارقة أو أن مظهري مميز بدرجة لا تُنسى، لكن السبب لم يكن أيًّا من الأمرين، بل إن حضور امرأة وحدها حدث نادر يظل المرء يتذكره بعد مرور عشرين عامًا.

تكرر نفس الموقف في مطعم آخر في قونيا بعد مرور خمسة عشر عامًا هذه المرة، وفي أرضروم إذ ركض بائع السجاد خلفي في الشارع، ولم يكن يذكر زيارتي لمتجره منذ اثني عشر عامًا فحسب، بل تذكر نوع السجادة التي اشتريتها وثمنها.

هناك أمر آخر يتعلق بكوني وحدي، وقد شعرتِ أنتِ أيضًا به يا سيدة ماري؛ فالمرأة المنفردة ليس لديها أطفال، وقد أشرتِ في الكثير من رسائلك إلى انزعاجك من تسلط الأطفال على فكر الأتراك، واعتقادهم أن عدم الإنجاب جرم لا يغتفر؛ ما زالت النساء الأتراك يُعرفن بعدد أطفالهن، والسؤال الأول الأكثر تكرارًا ا على أية امرأة: ''هل أنت متزوجة؟''، يليه السؤال عن عدد أطفالها.

تحدثت -يا سيدة ماري- فيما لا يقل عن ست رسائل عن عادات الإنجاب الكثيرة لدى التركيات، وعن أهمية الإنجاب من حيث المكانة الاجتماعية، وعن مأساة النساء الفقيرات المحرومات من الأزواج والأطفال، وذكرت كيف تعشق الأسر التركية الأطفال، وتعتبرهم ثمرات حياتها.

لقد عايشتِ إحساس الأمومة في تركيا مباشرة يا سيدة ماري؛ إذ كنت حبلى أغلب مدة إقامتك في تركيا، ثم أنجبت ابنتك ماري في ١٩ يناير/ كانون الثاني ١٧١٨م، وعلقت قائلة: "نظر إليّ الناس بازدراء شديد حتى أذعنت للنظام السائد وأنجبت مثل الآخرين".

ما زال المجتمع يشفق على النساء اللاتي لم ينجبن، حتى اليوم يا سيدة ماري، لكنني على ثقة تامة أن الأتراك سيدركون أن ثمة طرقًا كثيرة لإنشاء منزل وأسرة؛ فالمرأة قد تكون أمًّا بوسائل مختلفة، كأن تكون مسؤولة عن أسرة كبيرة أو عن مجتمع بأكمله.

أن تكون المرأة وحدها أو بلا أطفال لا يعني أنها ترفض مشاركة الحياة مع شخص آخر، ويبدو أن مفهوم الزواج من منظور تركي شغلك أنت أيضًا في رسائلك؛ فأنت تحاولين بوصفك واحدة من دعاة المساواة بين الجنسين أن تفهمي المشكلات المعقدة الخاصة بمكانة المرأة في المجتمع ودورها أمًّا وزوجة، ولو في ثقافة مختلفة.

وأنت تدعمين مبادئ المساواة مثل: الاستقلالية، الحياة بغض النظر عن الزواج والإنجاب، احترام الذات، المساواة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، الاختيارات في الحياة، العدل تجاه الرجال، تكافؤ الفرص، إدانة دعاة الظلم، هدم نظام التسلسل الهرمي؛ هذه هي القضايا التي تواجه النساء يوميًّا في الغرب وفي تركيا، فالنسوة ما زلن يبحثن عن المكان الذي يمنحهن المهارات المطلوبة، مكان لا يعيّرهن بالبقاء وحدهن، مكان لا يحكم عليهن بناءً على علاقاتهن بمنازلهن، مكان يمنحهن مسؤولية اختياراتهن ومستقبلهن.

سيدة مونتاجيو، ثمة شخص واحد غاب ذكره في رسائلك: إنه زوجك؛ فأنت لا تشيرين إليه في رسائلك إلى أصدقائك، أو تتحدثين عن صحته

أو تقـدم مفاوضاته، أما رسـائلك إليـه فهي قليلة ومتباعـدة، لهجتها جافة مجـردة مـن الحب، تختلف تمامًا عن اللهجة التي تسـتخدمينها في فيض العبـارات النابضة بالحيـاة المحمّلة بالانطباعات التي تزخر بها رسـائلك إلـى أصدقائـك؛ أيًّا كان السـبب، فيبدو أن زواجك لـم يكن على ما يرام، ويبدو أنك أصبحت لا تبالين به؛ لذا كنت امرأة وحيدة بالفعل في تركيا.

فـور عودتـك إلـى إنجلتـرا، بـدأت مرحلـة جديـدة فـي حياتـك، وفيها لعب الرجال دورًا مهمًّا؛ إذ قام أصدقاؤك الكتاب وابنك وشركاؤك في الأعمال وزوجك وأصحابك بتغيير مسـار حياتك بلا ريب، لكن هذه القصة تخصك وحدك، وبالفعل سردتها في رسائلك الكثيرة التي أرسلتها مـن الخـارج حيـث اختـرت قضاء بقيـة حياتك؛ لقـد اخترت أن تعيشـي وحـدك دون زوجـك وأطفالـك، ومـع هذا لم تكوني وحيـدة مطلقًا؛ فقد أصبح قلمك وأوراقك أسخى وأعز أصدقائك.

صديقتكم

كاثرين براننج

الرسالة الخامسة عشرة

احترام الكتب من احترام البشر

عزيزتي السيدة ماري،

كلتانا امرأتان محظوظتان؛ لأننا اخترنا أعمالًا ترتبط بالكلمة؛ فأنت اخترت الكتابة وفيها تسجلين خواطرك على الورق لتصبح أدبيات، وقد استخدمتِ كتابتك لتقديم الكثير من القيم التي تؤمنين بها، كالتي تتعلق بتعليم النساء والمشكلات الصحية؛ أنا أيضًا كرست حياتي للكلمة ولكن بصورة مختلفة، بوصفي معلمة للغات علّمت الآخرين الكلمات وكيفية استخدامها بمهارة في التواصل، وبوصفي أمينة مكتبة أحرص على جمع الكلمات وحفظها وتقديمها لأيدي الآخرين وقلوبهم وعقولهم.

كلتانا محظوظتان بالفعل؛ لأننا نعيش في عالم الكلمات، هل تجولت يومًا في سوق الصحافين النادر للكتب المستعملة في إسطنبول؟ إنها مكتبة مقامة في الهواء الطلق تزخر بأروع الكنوز التي يحلم محبو الكتب باستكشافها.

في رسالة أرسلتها إلى صديقك أليكساندر بوب في ١٢ فبراير/شباط عام ١٧١٧م تتحدثين عن تقديرك للشعر العربي الذي تعلمته من صديقك أحمد أفندي في بلجراد ومكتبته الغنية:

> ''شرح لي أبياتًا كثيرة من الشعر العربي، ولاحظت أن أوزانها تختلف عن أوزان أشعارنا؛ فهي أبيات متعاقبة بوجه عام، ذات جرس موسيقي ملحوظ، أما عبارات الحب فهي متقدة العاطفة ومفعمة بالحياة؛ أنا معجبة جدًّا بها، وأشعر بضرورة أن أتعلم اللغة العربية إذا كنت سأمكث هنا بضعة أشهر، إن لديه مكتبة جيدة جدًّا تضم كتبا من كل الأنواع، وقد أخبرني أنه يقضي معظم وقته في المكتبة.''

من أجمل اللحظات التي مرت بي في تركيا وقت أن التقيت بأشخاص يشاركونني المهنة؛ فأمناء المكتبات يشكلون مجموعة مترابطة متقاربة بوجه عام، تجمعهم قيم مشتركة، وتتشابه تلك القيم سواءٌ كنت في باريس أو نيويورك أو أماسيا؛ حيثما ذهبت أحرص على زيارة المكتبات للثناء على طريقة عملها، ودائمًا ما أجد خطوة تتم بطريقة مختلفة أحملها معي إلى وطني لأطبقها في مكتبتي.

تُعرف المكتبة باللغة التركية باسم (*Kütüphane*) وترجمتها الحرفية ''بيت الكتب''، وقد أسعدني الحظ بإجراء أفضل المقابلات مع زمرة من أفضل الأمناء في بعض أفضل المكتبات في تركيا، من بينها لقاء مع أمين مكتبة أماسيا الذي أسعده أن يريني نسخة نادرة من القرآن ترجع إلى القرن الخامس عشر، وهي أقدم نسخة في تركيا، نقشها الخطاط العثماني الشهير شيخ حمد الله، وحينما أخبرته أنه أقدم كتاب ألمسه أو أحمله علمني مقولة تركية هي (*Kitaba saygı, insana saygıdır*) (احترام الكتب من احترام البشر)؛ هذا مثال آخر على شمولية مفهوم

الاحترام لدى الأتراك؛ لم أسمع قبلُ عبارة بسيطة تلخص الدافع وراء عملي أمينة مكتبة؛ فأمناء المكتبات يعاملون البشر بأقصى درجات الاحترام.

أذكر أنني قابلت شيرين تكالي مؤسسة ''مكتبة المرأة'' في إسطنبول عقب الافتتاح مباشرة عام ١٩٩٠م، وقد ألهمني وحفزني فخرها بما كانت تحاول تحقيقه؛ تحدثت إليّ بعبارات فرنسية وإنجليزية لا تشوبهما شائبة، وأرتني المجموعة المكونة من خمسة آلاف مجلد محفوظة في مدرسة تم تجديدها بأسلوب فني، وشرحت لي كيف ابتكر أمناء المكتبة نظام التصنيف الخاص بهم لتيسير الوصول إلى هذه المجموعات بالغة التخصص؛ جعلتني هذه الزيارة والمحادثة أعيد النظر في الأماكن التقليدية لتصنيف مجموعات الكتب وتقديم المعلومات للجمهور؛ وهذا ما دفعني لإتمام مهمة عظيمة على الصعيد المهني، غير أنني لم أسمح في مكتبتي بالتدخين الكثيف الذي سمح به العاملون والقراء!

كذلك حفزتني زيارة لمكتبة أخرى في إسطنبول بطرق شتى، حيث قابلت أمناء مكتبات ألهمتني حماستهم وإيمانهم برسالتهم، توجد هذه المكتبة العامة الصغيرة خلف مجمع ميهرماه سلطانة في أسكودار في أحد المباني الملحقة بالمجمع الذي بناه سِنان عام ١٥٤٣م، ورغم أن المكتبة كانت مغلقة دعتني أمينة المكتبة للدخول لأنني كنت ''أختًا لها في حب الكتب''، وقضت فترة ما بعد الظهيرة تخبرني كيف أن المكتبات المماثلة لمكتبتها مهمة لأطفال الأحياء الفقيرة، وأوضحت لي أن هؤلاء الأطفال هم السبب وراء حماستها في فعل كل شيء، بدءًا من تجديد المبنى، وتنظيف الرفوف، وشراء أثاث جديد، وغسل الأرضيات، وانتهاءً باختيار وفهرسة كل الكتب شخصيًّا.

كانت المكتبة متواضعة ورثة قليلًا، لكن الأمينة تصرفت كأنها تصحبني إلى جولة في قصر دولما بهجة، تعلمت منها أيضًا أن أهم شيء في هذا العمل هو خدمة القراء، وليس كمية الكتب وحالتها على الأرفف.

لطالما كان أمناء المكتبات في تركيا على استعداد لفتح أبواب مكتباتهم وقلوبهم لي فور أن أخبرهم أنني أمينة مكتبة أيضًا؛ فهذه هي كلمة المرور السحرية لدخول الكثير من المكتبات والمحفوظات والمجموعات؛ أحمل ذكريات رائعة عن زيارات مع أمناء المكتبات، فعلى سبيل المثال أهداني رئيس أمناء مكتبة شمسي باشا العامة في أسكودار -التي تضم خمسًا وعشرين ألف مجلد- نسخة من جداول تصنيف ديوي مترجمة إلى اللغة التركية.

وزرت أيضًا مكتبة عامة صغيرة في أورجوب تفخر بامتلاكها ثلاثين ألف مجلد، وأحد عشر فرعًا تتبادل أكثر من عشرة آلاف كتاب كل عام لخدمة القرى المجاورة، تضم هذه المكتبة ركنًا خاصًّا في قسم الأطفال به خزانة مليئة بكتب الشباب صغار السن التي تتحدث عن أتاتورك، وقد عثرت على مجموعة استثنائية من الكتب النادرة في مكتبة البغدادي نجيب باشا التي أنشئت عام ١٣٩٧م في تيرَهْ.

أعاد وزير الحربية في عهد السلطان محمود الثاني بعض الكتب من بغداد في خزانات من الجلد الأحمر المصنوع لها خاصّة، ووجدت كتبًا نادرة أخرى في مكتبة رشيد أفندي في قيصري بجوار المسجد الكبير، إلا أن أكثر ما بهرني هو العناية الخاصة التي يوليها أمناء المكتبات الأتراك لجمهورهم.

أما في المكتبة العامة في أكساراي فقد تلقيت دعوة للتجول في مكتبة بها ثلاثون ألف مجلد، وطُلب مني حضور اجتماع للعاملين اختُتم بتناول

الشاي والكعك، وشاركت في مناقشة حيوية، حتى إنني خرجت في جولة في المكتبة المتجولة.

وقد دُعيت للتوقيع في كتاب الزوار في مكتبة إيناجول، التي أقيمت في مدرسة مجمع إسحاق باشا عام ١٤٨٢م، ومكتبة جسر إسطنبول كما لو أنني شخصية خاصة ذات مقام رفيع.

ذات مرة وأنا أزور مكتبة جامعة بايزيد في إسطنبول، التقط رادار الأتراك الشهير وجودي، فحياني الموظف وأمسكني واصطحبني إلى مكتب المدير قائلًا: "بلى، علمنا أنك أمينة مكتبة من الطريقة التي دققت بها في فهرس البطاقات!" كانت النتيجة استمرار الزيارة ساعتين، مع استدعاء مجموعة من أمناء المكتبات للترحيب بي، وعرض عليّ أحدهم مجموعة كتب نادرة ومخطوطة لجلال الدين الرومي ترجع إلى عام ١٦٩٠م.

من عمل أمين مكتبة فسيظل أمين مكتبة! بعد زيارة سوق كاراتاي، ظهر فجأة حقي بك -أمين مكتبة متقاعد مصاب بالصمم لكنه شخص محبوب- وأخذ على عاتقه مهمة أن يكون مرشدي الرسمي، لأنه كما أخبرني "لديه المعرفة"، فعليه طبعًا أن ينقلها لغيره.

لكن أعظم حدث شهدته في كل المكتبات التي زرتها في تركيا هو المؤتمر السنوي للاتحاد الدولي لجمعية ومؤسسات المكتبات (*IFLA*) في إسطنبول الذي أقيم في أغسطس/آب عام ١٩٩٥م، قامت أمينة مكتبة تشتعل حماسًا تُدعى ألتن أي سرنيكلي (أحد الأسماء التركية العظيمة ويعني "القمر الذهبي") بتنظيم مؤتمر للاتحاد لم يشهد العالم له مثيلًا حتى الآن، تضمنت فعاليات الافتتاح التي أقيمت في مركز أتاتورك الثقافي في منطقة تقسيم خطبًا ألقاها كل من محافظ إسطنبول وممثل منظمة

اليونسكو ورئيس الاتحاد الدولي، وتضمنت الباقة الختامية عرضًا لأول وزير ثقافة تركي ومعلمي المحبوب طلعت سعيد هلمان، وقد أسَر لب الحضور بحديثه الممتع الذي ضم ما لا يقل عن ستة عشر تلاعبًا لفظيًا مما اشتهر به، وأقيمت مأدبة سلطانية تلك الليلة في قصر عثماني سابق هو فندق تشيراغان، تضمنت احتفالات الليلة حفلًا للرقص الشعبي على مسرح في الهواء الطلق أسفل هيلتون، تلاه عشاء خفيف مجهز في صناديق الرحلات يتكون من شطائر الجبن وألذ ثمار كمثرى تذوقتها في حياتي.

خرجنا في اليوم التالي في جولة حول عدة مكتبات في إسطنبول (مجموعة مخطوطات قصر طوب قابي ومحفوظات المتحف الأثري ومكتبة السلطان أحمد الثالث في طوب قابي)، واختُتمت أحداث اليوم بحفل موسيقي للموسيقى الكلاسيكية في مركز أتاتورك في تقسيم.

ربما لا يبدو الأمر مثيرًا في رأيك، لكنني وجدته رائعًا؛ حينما اعتلت ألتن أي هانم المسرح لافتتاح مراسم الحفل الأول، فتحت ذراعيها وصاحت بصوت رنان: ''مرحبًا بكم في بلدي!'' وكلها فخر وطني وإحساس بحسن الضيافة الذي لا يصدر إلا عن تركي، وبالطبع دب الحماس في الحضور.

التقيت ذات مرة برفيق في حب المكتبات رحل منذ وقت طويل هو إبراهيم باشا، وقد التقيت به في مخيلتي أثناء سيري في مجمع نَفشهير الذي بناه عام ١٧٢٦م ويضم مسجدًا ومكتبة ومدرسة، في الواقع أظن أنك ربما قابلته بالفعل يا سيدة ماري.

إبراهيم باشا هو صهر السلطان أحمد الثالث ورئيس وزرائه، وقد خطط مدينة نَفشهير في وسط الأناضول على ضواحي كابادوكيا بوصفها ''مدينة جديدة''؛ إذ كان رجلًا مستنيرًا تبنى رؤية فرنجة الإمبراطورية

العثمانية بمساعدة معارفه في فرنسا، ويعود له الفضل في إثارة اهتمام السلطان أحمد الثالث بالعَمارة؛ الأمر الذي أدى إلى تشييد مكتبة قصر طوب قابي وشقق ''غرفة الفاكهة'' المترفة للحريم.

لقي إبراهيم باشا نهاية محزنة على يد الإنكشاريين الذين قتلوه، لكنه ما زال خالدًا في هذا المجمع الذي تم تشييده في موقع مرتفع بالحجر الأصفر المميز لمنطقة كابادوكيا.

الغريب في الأمر أن المدرسة في المجمع هي التي تستخدم حاليًّا مكتبة عامة، بوجود تمثال أتاتورك في منتصفها كما يجب، أما المكتبة الأصلية فتستخدم الآن مطعمًا للفقراء؛ وما زالت فكرة خدمة العامة مهيمنة على المكان بكل وضوح.

غير أن زيارة مكتبة عامة صغيرة في أكشهير تفوقت على كل ما سواها؛ في فترة ما بعد الظهيرة الدافئة، حملت أمينة مكتبة شابة لطيفة على ذراعها سلة مليئة بالحلويات المغلفة، وانتقلت من قارئ إلى قارئ تهديه ابتسامة وقطعة حلوى لتصاحبه وهو يقرأ، إنها لمسة صغيرة عذبة كعذوبة الحلوى، لمسة بسيطة تنم عن الاحترام؛ فكما تذكرين كل شيء هنا في تركيا يتم بسخاء واحترام وحب، حتى في ''بيت الكتب''.

المخلصة لك وللكلمات

قدرية برانج

المكتبة المتجولة في أكساراي

وصل مؤتمر الاتحاد الدولي لجمعية ومؤسسات المكتبات لركوب الحافلات مجانًا في إسطنبول عام ١٩٩٥م

مكتبة أطفال ميهرماه في أسكودار

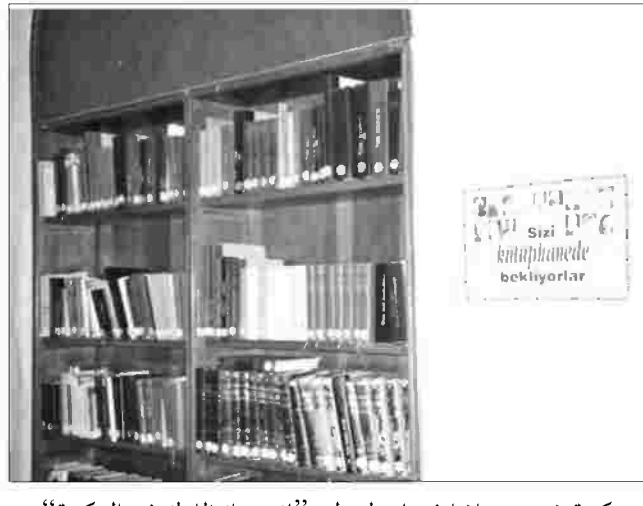

مكتبة شمسي باشا في إسطنبول: ''إنهم بانتظارك في المكتبة''

سوق الصحافين للكتب المستعملة في إسطنبول عام ١٩٨٠م

مكتبة إبراهيم باشا في نَفشهير

مكتبة السلطان أحمد الثالث في قصر طوب قابي

فصل بمدرسة المسجد الكبير في مانيسا

مكتبة إيناجول العامة في مدرسة إسحاق باشا عام ١٤٨٢م

دليل البطاقات لمخطوطات كلية بايزيد الثاني في أماسيا

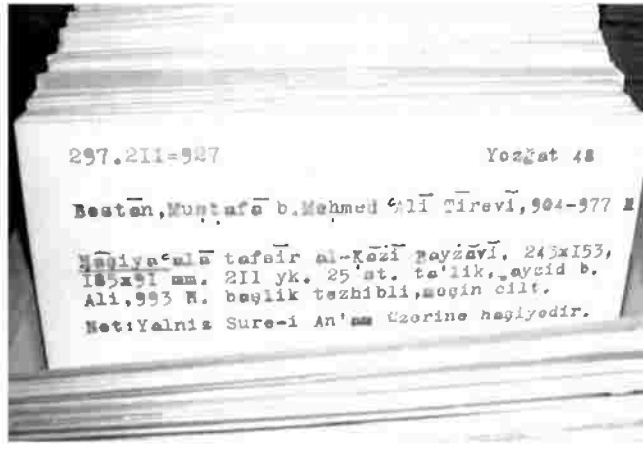

دليل بطاقات المخطوطات المحفوظة في المكتبة السليمانية بإسطنبول، أكبر مجموعة مخطوطات في العالم